أبنية العربية
بين
النوادر والغريب

الدكتور ابراهيم السامرائي
كلية الآداب - جامعة بغداد

عني النحارير من علماء اللغة المتقدمين باللغة فرووها عن شيوخهم وتجاوزوا ذلك فشافهوا الأعراب فكانت لهم رحلات إلى البادية . ولقد نشأت رواية للغة وإذا كانت رواية فلا بد من أخذ وضبط وتوثيق وسند على نحو يشبه قليلا ما اتبع في الأثر من الأخبار والحديث . ولقد ابتكر المسلمون أصولاً وقواعد صارمة اتبعوها في ضبط الحديث ومن ثم تجاوزت ذلك فاستخدمها المؤرخون .

غير أن هذه القواعد والأصول في تدوين التاريخ والأثر لم تمنع الكذابين والمدلسين من العبث والتزيد والكذب ، ثم لم تمنع قدسية الحديث نفراً من أصحاب الحديث في شيء من ذلك فكان الوضاعون والمدلسون والكذابون وكان الحديث الضعيف والمقطوع والمتروك وما سوى ذلك . أقول : إذا كان هذا قد عرض لهذه المواد العالية التي يعتمد عليها أهل الرأي ومن ثم تكون في شرعة الأمة في سلوكها الاجتماعي فما بالك في المواد الأخرى كالمادة اللغوية التي لم تكن ذات خطر على نحو ما يكون للحديث من خطر . لا أريد أن أنال مما بذل أولئك النحارير من جهد مُضْنٍ في خدمة اللغة ورسم تاريخها وتنقيتها ، وإنهم حققوا من العلم الجاد ما لم تحظ به لغة من لغات الحضارة في مختلف العصور . يروى عن أبي عمرو بن العلاء ، قال : كنت هارباً من الحجاج بن يوسف ، وكان يشتبه عليّ « فرجة » هل هي بالفتح أو بالضم ؟ فسمعت قائلاً يقول :

رُبّما تجزَعُ النفوسُ من الأمرِ له فَرْجة كحلِّ العِقالِ

بفتح الفاء من « فَرْجة » ، ثم قال : ألا إنه قد مات الحجّاج ، قال : فما كنت أدري بأيِّهما كنت أشدّ فرحاً ، بقوله : « فَرْجة » أو بقوله : مات الحجاج !(١) وعلى أن أولئك قد أبلوا البلاء الحسن فجدّوا وضبطوا ، قيل في نفر منهم أنهم وضعوا وأثبتوا ما لم يكن من خالص العلم . « سئل الدارقطني عن ابن دريد : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل : إنه كان يتسامح في الرواية عن المشايخ فيسند إلى كل واحد مايخطر له» .(٢)

وقال أبو منصور الأزهري في مقدمة « التهذيب » : « وممن ألف في زماننا الكتب فرمي بافتعال العربية وتوليد الألفاظ وإدخال ما ليس في كلام العرب في كلامها أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد صاحب « كتاب الجمهرة » ، وكتاب « اشتقاق الأسماء » وكتاب « الملاحن » وقد حضرته في داره ببغداد غير مرة فرأيته يروي عن أبي حاتم والرياشي وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي . وسألت ابراهيم بن محمد بن عرفة عنه فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته ، وألفيته أنا على كبر سنه سكران لا يكاد يستمر لسانه على الكلام من سكره ، وقد تصفحت كتابه الذي أعاره اسم الجمهرة فلم أرد على معرفة ثاقبة ولا قريحة جيدة ، وعثرت من هذا الكتاب على حروف كثيرة أنكرتها ولم أعرف مخارجها فأثبتها في كتابي في مواقعها منه لأبحث أنا وغيري عنها .(٣)

أقول : وقد أشاروا إلى ما أسموه « مناكير » ابن دريد . ولعل الباحث في « الجمهرة » واجد أشياء كثيرة نسبها المؤلف إلى اليمن بحيث يمكن أن نجرد منها مجموعة من لغة اليمن وكثير من هذه الألفاظ التي نسبت إلى اليمانيين لا نجدها في المصادر التي عنيت بلغة اليمن مثل كتاب « شمس العلوم » لنشوان الحميري وغيره .

وقد قيل في أبي عمر الزاهد الملقب بـ « غلام ثعلب » وتكلموا ورمي بالكذب . « ويقال أنه أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة لغة ، فلذلك الإكثار نسب إلى الكذب . وكان يسأل عن شيء قد تواطأ الجماعة على وضعه فيجيب

عنه ، ثم يترك سنة ويسأل عنه فيجيب ذلك الجواب بعينه »(٤) وجاء في « نزهة الألباء » : « وكان لسعة حفظه يطعن عليه بعض أهل الأدب ولا يوثقونه في علم اللغة ، حتّى قال عبيدالله بن أبي الفتح : يقال أن أبا عمر الزاهد لو طار طائر لقال : حدثنا ثعلب عن ابن الأعرابي ، ويذكر في معنى ذلك شيئاً » .(٥) ولا أريد أن أجعل من هذه الأخبار القليلة دليلاً كافياً على شيوع الوضع والكذب في اللغة ذلك أن ما حقق من بناء المعجم العربي القديم خير شاهد على ما أنجز في علم اللغة التاريخي .

غير أني سأستقري جملة من الأبنية في العربية ومدلولاتها لأخلص إلى شيء من خصائصها . وسأتناول جملة من المواد اللغوية التي اصطلحت عليها بالنوادر الغريبة ، ولا أريد بالنوادر ما أراده المتقدمون من اللغويين كنوادر أبي زيد ونوادر ابن الأعرابي وغيرهما .

١ — أن بناء « إفعالّ » مثل احمارّ وإصفارّ وادهامّ من الأبنية النادرة الغريبة . ولست أريد بالندرة أنها قليلة في العربية ولكني أريد أنها تفتقر إلى شيء من النظام الموزون في بنية الكلمة العربية . لقد أشار المتقدمون من علماء اللغة إلى مايعرض لهذا البناء ولما شاكله مثل حمارّة القيظ وصبارّة القر ومدهامّتان وتقاصّ وغير ذلك فعبروا عنه بـ « التقاء الساكنين » والمسألة بعيدة عن التقاء الساكنين ذلك أن الذي نرسمه ألفاً في « إحمار » و « إصفار » ليس صوتاً ساكناً وإنما هو حركة طويلة أي فتحة طويلة .

إن هذا المدّ الطويل أو الفتحة الطويلة التي رسمت ألفاً يؤلف مقطعاً خاصاً في بنية الكلمة الواحدة . إن هذا المقطع الخاص يتألف من المد وهو الألف والصوت التالي له المدغم بنظيره كالراء من « إحمارّ » . وهذا ما يتأتى من دراسة علم الصوت ومعرفة المقاطع التي لم يعرض لها العلماء العرب المتقدمون .

لقد فطن الأوائل إلى هذه الظاهرة الصوتية وعبروا عنها بالتقاء الساكنين وأشاروا إلى أن الكلم العربي الذي يشمل على هذه الظاهرة لا يكون إلا في النثر من الكلام أما الكلام الموزون وهو الشعر فلا يمكن أن يكون في مادته من الكلم ما يشتمل على هذا المقطع الصوتي . وبسبب من ذلك التجأ المتنبي إلى فك الأدغام فقال :

« ولا يُبرِمُ الأمرَ الذي هو حائل »

وكان ذلك من جملة ما أخذ على المتنبي في مخالفة شعره للقياس اللغوي . ومن يدري فلعل في لغات العرب الخاصة ما يجيز فك هذا النوع من الادغام على نحو ما نجد في طائفة من الألسن الدارجة في عصرنا .

ولقد جوّز المبرّد أن يأتي هذا النوع من اللفظ في بحر المتقارب وقد جاء في « الكامل » : « وحمارّة القيظ : اشتداد حرّه واحتدامه . وحمارّة القيظ مما لا يجوز أن يحتجّ عليه ببيت شعر ، لأن كل ما كان فيه من الحروف التقاء ساكنين ، لا يقع في وزن إلا في ضرب منه يقال له المتقارِب فانه جوّز فيه على بعد التقاء الساكنين وهو قوله :

فذاك القِصاصُ وكان التّقا   صُ فرضاً وحتماً على المسلمينا

ولو قال : « وكان القصاص فرضاً » كان أجود وأحسن ، ولكن قد أجازوا هذا في هذه العروض ، ولا نظير له في غيرها من الأعاريض » .(٦)

قال ابن سيده : قوله « التقاص » شاذ لأنه جمع بين الساكنين في الشعر ولذلك رواه بعضهم : وكان القصاص ، ولا نظير له إلا بيت واحد أنشده الأخفش :

ولولا خداش أخذت دوابَّ سَعدٍ ، ولم أعطه ما عليها .

قال أبو إسحاق : احسب هذا البيت إن كان صحيحاً فهو :

ولولا خداش أخذت دوابَ سعدٍ ، ولم أعطه ما عليها .

لأن إظهار التضعيف جائز في الشعر . (٧)

وقد عرض المبرد في « الكامل » لكلمة « مُشعانّ الراس » أي منتفخ(٨) الشعر متفرّقه ، ومثل هذا لا يكون في شعر لأن في هذا التقاء الساكنين ، ولا يقع مثل هذا في وزن الشعر إلا فيما تقدم ذكره في « المتقارب » . (٩)

ولقد عرض الدكتور رمضان عبد التواب لهذا النوع من الكلم وأشار إلى ما أشار إليه المبرد والأخفش ومسألة التقاء الساكنين ومخالفة ذلك للدرس الحديث في هذه المسألة الصوتية في مقالة له نشرت في مجلة « المورد » في العدد الرابع من المجلد الثاني سنة ١٩٧٣ موضوعها صيغة « أفعالّ » في العربية وأثر الوزن الشعري في نشوء صيغ جديدة » . وقد ذهب بعد مقدمته التي أشرت إليها إلى أن « أفعألّ » قد جاءت في العربية من « افعالّ » حتى ولو لم يوجد إلى جوار « افعألّ » المهموز « افعالّ » بالألف . لقد أيد رأيه هذا محنجاً بقول كثير :

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهداً　　إذا ما احمأرّت بالعبيط العواملُ(١٠)

وقوله أيضاً :

وللأرض أما سودها فتجللت　　بياضاً وأما بيضها فادهأمّتِ(١١)

وقول الحطيئة :

وضيّعتُ الكرامة فارمأدّتْ　　وقبّضْتُ السّقا في جوف سلم(١٢)

وقول دكين الراجز :

راكدة مِخلاته ومَحْلَبُهْ　　وجُلّه حتى ابيأضّ مَلْبَبُهْ(١٣)

وقول الشاعر :

وبعد انتهاض الشيب في كل جانب　　على لمتي حتى اشعألّ بهيمها(١٤)

ويقول شاعر من بني أسد :

حشّ الولائد بالوقود جنوبهـــــا حتّى اسوأدّ من الصّلَى صفحاتُها

لقد أحسن الدكتور عبد التواب في هذه الشواهد المفيدة التي جاءت فيها الأفعال المهموزة : « احمأرّ وادهـأمّ وارمأدّ وابيأضّ واشعألّ واسوأدّ » . ومن غير شك أن في العربية من هذه الأفعال بناء « افعالّ » بالألف لا الهمزة .

ورأي الدكتور رمضان هذا هو رأي المتقدمين من علماء اللغة ومنهم أبو منصور الأزهري إذ قال في « التهذيب »(١٥) وهو يعرض لأبواب الهمز : « ومنها الهمزة التي تزاد لئلا يجتمع ساكنان ، نحو : اطمأنّ واشمأزّ وازبأرّ . وكأنه يشير إلى أن الأصل اسطمانّ واشمازّ وازبارّ بألف المد لا الهمزة .

وقد أشار إلى هذا الرأي من المتقدمين أيضاً أبو حاتم السجستاني فقال :

« ويقال : قد اجثألّ الغسيل : إذا انتشر وانتفخ ، وأنشدنا الأصمعي :

« جاء الشتاء واجثألّ القُبَّرُ »

يريد : تنفش . قال أبو حاتم : أصل « اجثألّ » افعالّ من الجَثْل ، ويقال : شعر جثل فهمزوه كما يهمز بعضهم احمأرّ واسوأدّ فراراً من التقاء الساكنين وهما أول الحرف المشدّد والألف التي قبله »(١٦)

ومن هذا قول الراجز :

« مُوفَّر اللِمّة مُجثئلُّها »(١٧)

حتّى إذا أثبت الدكتور رمضان عبد التواب رأي المتقدمين في تفسير زيادة الهمزة وأيدهم فيه وألمح إلى مثل هذا الرأي في كتاب المستشرق الألماني « نولدكه »(١٨) راح يستقري كتب اللغة والمعجمات يستخرج منها ما جاء على « افعألّ » المهموز الذي لم يرد إلى جواره « افعالّ » بالألف .

ولكني أذهب غير هذا المذهب ، وهو أن « افعألَّ » من مزيد الثلاثي بحرفين وهما الهمزة والتضعيف ولا علاقة له بـ « افعالَّ » المزيد بالمد أي الألف والتضعيف . ولا تكون « افعألَّ » المهموز قد جاء من « افعالَّ » بالألف هروباً من اجتماع الساكنين كما ذهب المتقدمون وكما التزمَ برأيهمْ الدكتور رمضان . أما أن يكون في الشواهد المتقدمة احمارّ واسوأدَّ وابيأضَّ فلا عبرة فيه ، فهو من باب اضطرار الشاعر لأن الأفعال بألف المد لا يمكن أن تأتي في أعاريض الشعر .

والدليل على أن « افعألَّ » لبست من « افعالَّ » للتخلص مما أسموه التقاء الساكنين وجود طائفة من هذه الأفعال بالألف ولا توجد إلى جوارها أو لم تتحول إلى افعألَّ ، تخلصاً وهرباً من هذه العلة العارضة . وقد استوفي هذه الأفعال الدكتور رمضان ومنها :

اجذأرَّ واجرأشَّ واجفأظَّ واجزألَّ واخطأبَّ وارفأنَّ
وارمأزَّ وازبأرَّ وازلأمَّ وارزأمَّ واسمأدَّ واسمألَّ واشمأزَّ
واصمأكَّ واضفأدَّ واطمأنَّ واقسأنَّ واكبأنَّ واكلأزَّ
واتلأبَّ واضمأكَّ واخضألَّ .

هذه كلها جاءت على « افعألَّ » المهموز ، ولم يرد منها شيء على « افعالَّ » بالألف . ثم إن هناك طائفة أخرى مما جاء على « افعالَّ » بالألف ولم يرد منها على « افعألَّ » المهموز وهي : ابلاجَّ الباب : انفتح (الأفعال لابن القطاع ١/١١٣) .

ابهارَّ الليلُ : انتصف (الأفعال لابن القطاع ١/١١٢ واللسان ، (بهر) .

ابهارَّ النهارُ : حين ترتفع الشمس .

اخضالَّ الشيء : ابتلَّ (الأفعال ١/٣٣٢) .

ارغادّ اللبنُ : اختلط بعضه ببعض ولم تتم خثورته (اللسان ، رغد) .
ارماقّ الحَبْلُ : ضَعُفَ (اللسان ، رمق) .
اشعانّ الرأسُ : انتفش شعره وتفرّق (اللسان ، شعن) .
اقراحّ الفرسُ : طَلَعَ نابه وتمّ سنّه (الأفعال ٦٩/٣) .
اقعالّ النَورُ : انشق عن قعالته (تهذيب اللغة ٢٥١/١) .
الهاجّ اللبَن : خَثَر (اصلاح المنطق . ٣٥) .
املاسّ الشيء : صار أملس (المنصف لابن جنى ٧٨/١) .
اربادّ وجهه : مثل اربَدّ (اللسان ، ربد) .

وقد ذهب الدكتور رمضان إلى أن « افعالّ » لا تخص الألوان مثل احمارّ واخضارّ والأفعال المذكورة تثبت هذا . أقول : ولم يرد من أقوال اللغويين شيء يستفاد منه انهم ذهبوا هذا المذهب .

وكنت قد عرضت لبناء « افعالّ » وأشرت إلى قلة الوارد من هذا البناء في العربية بالقياس إلى أبنية الأفعال الأخرى . وقد أشرت إلى أن هذا البناء قد زال من العربية وما يوجد منه إن هو إلا بقية ، وقلة وروده تشعر بهذا ثم إن العربية قد عدلت عنه إلى الأبنية الأخرى ذلك أن « احمرّ » و « اصفرّ » مثلاً يسدّان مسدّ « احمارّ » و « اصفارّ » . وأن قلة هذا البناء تشعر من الناحية التاريخية أن العربية تجري في تطورها نحو الأسهل والأوفق والأساس وهذا يفسر الهرب من اجتماع الساكنين على نحو ما فسره اللغويون الأقدمون .

وعلى هذا لا أرى أي صلة بين « افعألّ » المهموز و « افعالّ » بالألف فكل منهما بناء من أبنية الأفعال وإن قال به غير واحد من اللغويين الأقدمين .

إن أبنية الرباعي في العربية تؤلف مجموعة مفيدة من الناحية التاريخية ، فهي كثيرة بالقياس إلى نظائرها في اللغات السامية وكذلك أبنية الخماسي .

ويزاد على هذه الأبنية بأحرف فينشأ من ذلك المزيد من هذه الأبنية فيحصل الدارس على مجاميع كبيرة من الألفاظ الغريبة . إن الغرابة والندرة في هذه الأبنية تأتي من ناحيتين : الأولى إنها غريبة ونادرة في هيآتها التركيبية ثم إنها نادرة وغريبة في دلالاتها المعنوية . ومن المفيد أن أشير إلى أن هذه الدلالات المعنوية تفصح في الغالب عن سمات بدوية ، وهذا شيء طبيعي ، فقد توجه علماء اللغة إلى الأعراب يأخذون عنهم حتّى أوحي لهؤلاء الإعراب أنهم أساتذة . ولقد دفع هذا الشعور لدى الإعراب أن يتصدوا للتأليف والتعليم . ومن الإعراب من اتخذ التعليم مهنة له فكان أبو البيداء الرياحي يعلّم الصبيان بأجر(١٩) . وقددفع هذا الشعور بالعلم أبا خيرة أن يكتب كتاب «الحشرات»(٢٠) وكتاب « الصفات »(٢١) ، وكتب أبو عبد الرحمن عبد الأعلى الأعرابي « كتاب النحويين » و « كتاب الغريب » و « كتاب الحديث » كما أشار ابن النديم(٢٢) ، وقد صنف الحرمازي الإعرابي كتاباً في « خلق الإنسان »(٢٣). وقد أشار ابن النديم عند كلامه على دلامز البهلول وقال : « رأيت له كتاب النوادر والمصادر بخط السكري »(٢٤) ، كما أشار إلى كتاب النوادر لرهمج ابن محرز وقال : رواه عنه محمد بن الحجاج بن نصر الأنباري ، رأيته نحو مائة وخمسين ورقة وفيه اصلاح بخط ابي عمر الزاهد(٢٥) ، وكتب أبو المضرحي الأعرابي(٢٦) كتاباً في النوادر رآه ابن النديم بخط ابن أبي سعد وعرف بربيعة البصري يقوله : « بدوي تحضر » وله من الكتب كتاب ما قيل في الحيات من الشعر والرجز وكتاب حنين الإبل إلى الأوطان . وقد استهوت الإقامة في الحضر نفراً من هؤلاء الإعراب فانقطعوا عن البادية وشغلوا أنفسهم بما يشغل به أهل الحواضر ، فامتهن الوراقة كل من أبو خيرة(٢٧) وأبو مالك عمرو بن كركرة .(٢٨)

وقد كانت إقامة هذا النفر من الإعراب في الحواضر سبباً في أنهم فقدوا كثيراً من فطرتهم السليمة وسليقتهم البدوية فلانت جلودهم وفسدت السنتهم ، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك فقال : « كان بين يزيد بن كثوة يوم قدم علينا

البصرة وبينه يوم مات بون بعيد على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العجمة » .(٢٩)

وقد ألمح أبو عمرو بن العلاء إلى أن هؤلاء الأعراب قد فقدوا كثيراً من فطرتهم فجاء عنهم السقط ، وقد روي أنه سأل أبا خيرة الأعرابي عن قولهم : « استأصل الله عرقاتهم » فنصب أبو خيرة التاء من « عرقاتهم » فقال أبو عمرو : هيهات يا أبا خيرة ، لان جلدك . ذلك أن أبا خيرة . وقد استضعف أبو عمرو النصب لأنه سمعها بالجر(٣٠) .

ولم يكن غريباً أن يلجأ هؤلاء الأعراب إلى الإفتعال والوضع ، وربما تبعهم في ذلك نفر من غير الأعراب ، ومثل هذا ما روي عن رؤبة الراجز أنه ضاق بيونس بن حبيب الذي كان يكثِر عليه السؤال فقال له : « حتّى متّى تسألني عن هذه الأباطيل وأزوقها لك ، أما ترى الشيب قد بلغ في رأسك ولحيتك »(٣١) والكلام على رؤبة وافتعاله وتزيده كثير ، فقد حكى أبو عبيدة أشياء أخرى تدل على افتعاله أشار إليها ابن سلام(٣٢) ولنتعرض لشيء من هذه الأبنية التي أضافت إلى العربية قدراً كبيراً من الكلام المهمل الذي لا يمكن أن يطمئن إليه الباحث في العلم اللغوي التاريخي .

ذكر يونس بن حبيب فيما زعموا أنه سمع بعض العرب يقول : ما هذه الكَنْخَبَة(٣٣) ؟ يريد الكلام المختلط من الخطأ . وقد خلا الخبر في أي إشارة أخرى لورود الكلمة في قول أو بيت . ولا أريد أن أجعل ورود الكلمة في النص شرطاً لا محيد عنه لصحة الكلمة وورودها ، ولكني أريد أن أقول أن هذه الكلمات التي لا تدل على مدلول واضح كثيرة في مطولاتنا اللغوية ولا نجدها إلا في هذه الأقوال التي تنسب إلى بعضهم ، وأ إلى إعرابي مجهول ، أو أنها حُكيت عن أحد من اللغويين ولم يؤيده آخر فيما ذهب إليه أفلا يجوز أن أقول أن النحارير قد جرّبوا الوضع فزادوا ، شَعَروا أم لم بشعروا ؟

وإذا ذهبنا إلى معنى « كثرة الكلام واختلاطه وجدنا الشيء الكثير فقد قالوا : الحَطْلَبة كثرة الكلام واختلاطه وحَطْلَب في كلامه خلط وأكثر ومثله الهَذْرَبة والهَذْرَمة .

ثم ألا يجوز أن يكون ولوعهم بالغريب والنوادر وأخذ ذلك عن الأعراب قد كان سبباً في التزيد والوضع . يقول عمر بن خالد عن أم الهيثم الأعرابية : قدمت علينا عجوز من بني منبّر تسمى أم الهيثم فغابت عنا ، فسأل عنها أبو عبيدة فقالوا : أنها عليلة ، فقال : هل لكم أن نعودها فجئنا فاستأذنا فقالت : لِجوا . فسلّمنا عليها فاذا هي عليها أهدام وبُجُد وقد طرحتها عليها فقلنا : يا أم الهيثم كيف تجدينك ؟ قالت كنت : وَحْمي بالدكّة (الودك) فشهِدتُ مأدبة فأكلت جُبُنْجُبةً من صفيف هَلْعة فاعترتني زَلْخة . فقلنا يا أم الهيثم : أيّ شيء تقولين ؟ فقالت : أو للناس كلامان ؟ والله ما كلمتكم إلا بالعربي الفصيح^(٣٤) . أقول : إن الباحث ليميل إلى أن يكون في هذا الخبر شيء من الوضع فقد اختيرت هذه الكلمات الغريبة اختياراً خاصاً يبدو غريباً في حِوارٍ مفهوم كل الفهم .

ومن الغريب جداً أن الألفاظ الغريبة أو النوادر تفتقر في الأعم الأغلب إلى الشاهد الذي يطمأن إليه ، وهو إن وجد فرجز نادر لا نلقاه إلا في المطولات اللغوية . قالوا : الهَزْمَجَة : اختلاط الصوت وأنشد الراجز :

تخرجُ من أفواهها هَزَالجاً أزامِلاً وزُجَلاً هُزامِجا

ومن المفيد أن أشير إلى أن بناء « هُزامِج » على « فُعالِل » بضم أوله وكسر ما قبل آخره لا يوجد في العربية إلا في الأرجاز وقصائد الأدب القديم . وإن الاستقراء ليشير إلى أن هذا البناء قد انعدَم أو أوشك أن ينعدم في أدب العصور العباسية . وإن دلالة هذا البناء تنصرف إلى شخوص بدوية أو مدلولات قديمة كما سنرى .

ولنعرض لألفاظ ما وصف بـ « الشدة والصلابة » في الرباعي القديم لنجد جمهرة من الألفاظ غريبة كل الغرابة ، نادرة كل الندرة ، بدوية ممعنة في البداوة .

إن « طِلَخْف » و « طِلَحْف » على بناء « فِعَلّ » الصلب الشديد ولا ندري أحيوان أم آدمي . والكَمْتَر على بناء « فَعْلَل » و « الكُماتِر » على « فُعالِل » الصلب الشديد ومثله الكَنْبَل والكُنابِل وكذلك الجَعْدَل . ومثله العَبْتَل والنَبْتَل . والسِبْطر والضِبَطْر الصلب الشديد . والشَنْزَب والشُصْلُب الشديد القوي ، والجَلْدَب الصلب الشديد والصِيَّم والجِوَرّ على بناء « فِعَّل » الصلب الشديد . والجَلَنْدَح والعَدَبَّس والعَضَمَّر الصلب الشديد . والعِرْصام والعُرْضُم الصاب الشديد والعِزْزام والصِلْخاد الصلب الشديد ، والصُنادِل والضُبارِم الصلب الشديد ، والصُماصِم الصلب الشديد .

ومثل الصلب الشديد هذا طائفة لا حصر لها من الألفاظ تفيد صفة من صفات خَلْق الإنسان أو الحيوان كالقوي الشديد الخَلْق أو الغليظ أو القصير أو الضخم أو الطويل أو شيء يشبه هذا مما يتصل بالصفات الخلقية وقد يتصل بالصفات النفسية .

ومن هذا :

البُجْتُر والبُهْتُر المجتمع الخلق القصير ، ورجل حُنْبُث وخُنابِث المذموم ، البُغْثُر الأحمق الضعيف ، قال الراجز :

ليعلمنّ البُغْثر ابن البُغْثرِ

والقُبْتُر والقُباتِر وهو الحسيس الحامل ، والشَنْبَثُ والشُنابِث الغليظ من الناس وغيرهم ، والغَضْبَر والخُضابِر الشديد الغليظ ، ورُجَل عِرْبَض وعِرباض الغليظ الشديد ، قال رؤية :

كم جاوزَت من حيّةٍ نِضناضِ   يُلقي ذراعَي كَلْكَل عِرْباضِ

والصَبَنْتَم الشديد ، والدَلَمَث والدُلامِث السريع ، والكَنَثْر والكُناثِر المجتمع الخَلْق ، والحَجَرْش المجتمِع الخَلْق الغليظ ، والجُعْدُب الضخم من الرجال ، والعُلَبِط بناء « فُعلِل » الرجل الغليظ ولبن عُلَبِط وعُلابِط إذا خَثَر وغَنَم عُلابِط وعُلابِطة إذا كثُرت ، والدَهْمَج والدُهامِج العَظيم الخَلق ورجل كَلَبَثَ وكُلابِث متقبِّض بخيل ، وجَلَحَب وجُلاحِب وهو الشيخ العظيم الجسم ، ورجل جَحَنْبَ وجُحانب وهو القصير ، وخَبَنْجَر وخُباجِر المسترخي العظيم البطن ، والشَرَجَب الطويل من الناس والخيل ، ورجل جَعَبَّر متداخل الخلق ، والسَلَحَب والشَنَخَب الطويل ، والجَعَنْبَ القصير .

ومثل هذا كثير يجري على أبنية كثيرة جلُّها غريب نادر .

أريد أن يقف الباحث اللغوي في عصرنا على جملة هذه المخلفات التي لا تختلف عن النوادر المتحجرة في باطن الأرض من العاديّات . أقول من العاديات لأشير إلى قيمتها التاريخية وإن كان الكثير منها موضوع وضعه الأعراب وغيرهم من أهل اللغة ، فبينا يكون عُلَبِط وعُلابِط اللبن الغليظ الخاثر إذا هو الرجل ضخم المنكبين كما في قول الراجز :

لو أنّها لاقتْ غلاماً طائِطاً   ألفَى عليه كَلْكَلاً عُلابِطاً

وقد بدا لي أنهم أثبتوا هذه المعاني غير المستقرة وكأنهم استوحوا ذلك من اجتماع الأصوات في اللفظ ، فأثبتوا القوة والشدة والصلابة وشيئاً من ذلك حيث شعروا أن تأليفة الأصوات تؤدي ذلك . ولنَعدِلْ إلى طائفة من الأفعال ومنها « افعألّ » الذي عرضنا له في بدء هذه المقالة فنجد :

اسمألّ الظلُّ إذا تقاصَرَ ، قال الشاعر :

برد المياهَ حضيرة ونفيضةً   وِرد القطاة إذا اسمألّ التُبَّعُ

واصمألّ الأمر إذا اشتدّ وغلُظ ، وانشد للشنفري أو خلف الأحمر :

نَبَأٌ ما نابَنا مُصْمئِلُّ   جَلّ حتى دقّ فيه الأجَلُّ

وارفأنّ الناسُ إذا سكنوا بعد جولة ، قال العجّاج :

حتى ارفأنّ الناس بعد المَجْوَلِ

واكلأزّ الرجل إذا تقبّضَ ولم ينبسط ، قال رؤبة :

وكل كَزّ الوجه مُكلئِزّ

واجثألّ النبت إذا كثُر ، قال الراجز :

جاء الشتاء واجثألّ القُبّرُ

وما أظن أن هذه الشواهد اليتيمة تعطي أصالة تاريخية لهذه الألفاظ التي لا تعدو أن تكون قد صنعت صناعة .

ومما يقوي هذا أن طائفة منها افتقرت حتى إلى هذه الشواهد الأوابد فقالوا :

احزألّ الشيء على الشيء إذا ارتفع ، واحزألّت الإبل إذا اجتمعت وكذا القوم ولا ندري اين كان هذا في كلامهم ؟

وازبأرّ النبتُ والوَبَر والشعَر إذا انتفَشَ

واسمأدّ رأس الرجل ووجهه وسائر جسده إذا وَرِمَ . ولعلهم أخذوا ذلك من « سمد » الثلاثي إذا تغير واكفهر قال تعالى : « وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون »(٣٥) .

وارزأمّ الرجلُ إذا غضِبْ وازلأمّ القومُ إذا ركبوا فانتصبت بهم إبلهم في السير .

وازلأمّ الضُحَى إذا ارتَفَع ، واحزألّ الرجل إذا انتصب ، واضمألّ النبتُ إذا رَوي واخضرّ ، واتمأرّ الرجل إذا غلظ والرمح اشتدّ وصلُبَ .

ومثل هذا كثير اجتزىء منه بهذا القدر .

وأذكر إننا كنا صِبْيَةً في الكتّاب نشدوا شيئاً من صرف العربية وكنا نحفظ في أبنية الأفعال احرَنْجَمَ بمعنى اجتمَعَ واجلوَّذَ بمعنى أسرَعَ ولم نعلم أين نجدهما في كلام العرب . ومثل هذا :

ابلنْدَحَ المكانُ اتسع ، وابلنْدَحَ الحوض انهدَمَ .

واطلنْفَأَ إذا لصق بالأرض ، قال ابن احمر :

مُطْلَنْفِئاً لون الحَصَى لونُه   يحجُبُ عنه الذَرَّ ريشٌ زمِرْ

ومنه ادْلَنْظَى إذا سَمِن وغَلُظ ، ورجل دَلَنْظَى وبَلَنْزَى إذا كان ضخماً غليظ المنكبين .

ومنه اسرَنْدَى ، والمُسْرَنْدي الذي يعلوك ويغلبك قال :

قد جعل النعاس يَغْرَنْدِبني   ادفعُه عنّي ويَسْرَنْدِبني

وكنا نعرف أمثلةً من ذلك هي : احبَنْطَى واحبَنْطَأ واسلَنْقَى وسَلْقَى .

هذا ما أردت أن أقف عنده وقفات أبحث في هذه اللغة القديمة العتيقة التي اجتهد فيها الأفذاذ النحارير فجاءت على هذا النحو من السعة .

غير إننا اليوم مدعوون إلى أن نضع لغتنا الجديدة التي نحيا بها حياة جديدة في حضارة جديدة . وهذا يقتضينا أن نعمل على سنن أسلافنا – عليهم الرحمة – وأن نفيد من جهودهم ، ونفيد مما دوّنوه من أبنية تبدو اليوم غريبة ، فان عدنا إليها مفيدين منها في باب المصطلح الجديد أعدنا إليها حياة جديدة . ألا نعتبر بما يصنع الغربيون في أخذ المصطلح من الكلمة الإغريقية أو اللاتينية المهجورة ؟ وكأنهم قصدوا إلى أن تكون الكلمة غريبة في بنائها غريبة في مدلولها بعيدة عما يستعمل الخاصة والعامة .

المصادر والهوامش

(١) نزهة الالباء لابن الانباري ص ٢٦ (ط محمد أبي الفضل ابراهيم) .

(٢) انباة الرواة ٣/٩٥ .

(٣) مقدمة « التهذيب » .

(٤) انباه الرواة ٣/١٧٢ .

(٥) نزهة الالباء ص ٣٧٧ .

(٦) الكامل للمبرد ١/٢٥ (بتحقيق د. زكي مبارك) .

(٧) اللسان (قصص) . ونقل السيوطي في المزهر ٢/١٠٧ قول المبرد عن البطليوسي في « شرح الفصيح » .

(٨) الرواية « منتفخ » والصحيح « منتفش » قال ابن السراج (الكامل ٢/٤٥٢) .

(٩) الكامل ٢/٤٥٢ .

(١٠) انظر الديوان ق ٤٦/١٠ ص ٢٩٤ واللسان (جنن) .

(١١) انظر الديوان ق ٥٤/٤ ص ٣٢٣ وشرح الشافيه ٤/١٧٠ .

(١٢) الديوان ق ٨٢/٨ ص ٣٤٩ .

(١٣) الرجز في شراح الشافية ٤/١٧٠ والخصائص لابن جنى ٣/١٤٨ واللسان (جنن) .

(١٤) اللسان (شعل) وسر صناعة الاعراب ١/٧٣ وشرح شواهد الشافية ٤/١٦٩ .

(١٥) تهذيب اللغة ١٥/٦٨٢ وقد نقل قول الازهري هذا ابن منظور في اللسان ١/١٧ .

(١٦) النخلة ص ١٠ (عن نسخة بالآلة الكاتبة عن المطبوعة الايطالية) . والرجز في التهذيب ١٠/٥٦ ، وجمهرة اللغة ٣/٢٧١ ، ٤٠٢ والرجز لجندل بن المثنى .

(١٧) انظر اللسان (جثل) .

(١٨) (الصفحة الثامنة – الفترة الخامسة) **Noedefe Zuɪ Gramwatik**

(١٩) البيان والتبين ١/٢٥٢ .

(٢٠) الفهرست ص ٦٩ .

(٢١) ذكره أحمد بن الخارزنجى ضمن مصادر لكتاب الكملة انظر انباه الرواة ١/١٠٨

(٢٢) الفهرست ص ٦٨ .

(٢٣) الفهرست ص ٧٢ .

(٢٤) الفهرست ص ٧١ .

(٢٥) الفهرست ص ٦٨ .

(٢٦) الفهرست ص ٧٤ .

(٢٧) الخصائص ٣/٣٠٥ .

(٢٨) الفهرست ص ٦٦ .

(٢٩) البيان والتبين ١٠/١٧٤ .

(٣٠) نزهة الالباء .

(٣١) طبقات فحول الشعراء ٥٨١ .

(٣٢) المصدر السابق ٤٠ وقد استوفي هذا الأمر وأحسن فيه الدكتور عبد الحميد الشلقاني في كتابه « رواية اللغة » .

(٣٣) الجمهرة ٣/٣٠٣ .

(٣٤) الأمالي ٣/٦٩ .

(٣٥) سورة النجم ٦١ .